# الدكتور رفعت زكى

## قصة من الألـم والأمـل

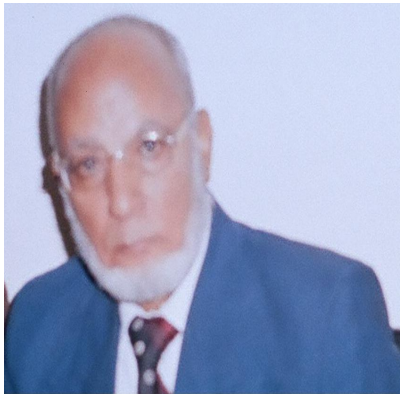

بقلم

**الدكتور/ السيد محمد الديب**

# الدكتور رفعت زكى

## قصة من الألم والأمل

### أولا: تضاريس الحياة

"رفعت زكى محمود عفيفى سيدأحمد"

هذا هو الاسم الخماسى للزميل الراحل، الذى غاب تحت الثرى بعد محاولات طبية مستعصية لاستشفائه، حيث استسلمت بعدها روحه الأوابة لحكمة الله فى البقاء والفناء، راضية مرضية، وانطوت صفحته من سجلات الكون ؛ لتحيا نفسه المطمئنة فى عالم البرزخ الرحيب، وتكثفت حياته كلها، وانكمشت فى أربعة عشر يوما، قضاها فى تجهيز دنيوى للآخرة، ولعلها كانت تغسيلا وتطهيرا لروحه الطيبة، التى عاش بها ثمانية وسبعين عاما، وعشرة أشهر وخمسة وعشرين يوما، وكم من مرة أسقطه المرض، وكان يظن من يراه أنها النهاية، لكنه يتعافى ويعود إلى عزيمته القوية الصلبة، مع أن بنيته تشير إلى غير ذلك، وتأملت فى حالته، وشغلت بنومته، ولم يرد بذهنى أنها الأخيرة، لكنها أوصلت إلى الرحيل، وعاش فى هذه الأيام بلياليها قريبا من الموت، ولعله ــ بدون إحاطة ــ كان يفكر فيه، ويبحث عن أسراره عند إفاقاته المتقطعة من صحوة المرض، فكم كانت الدنيا تساوى لديه آنذاك؟ وما الذى علق بذهنه منها؟

لا شك فى أنه قد استسلم لحكمة المحيى المميت، ورضى بما قدمه لله تعالى، وبما كان منه لسائر البشر الأقارب والأباعد، واستشفع ربه السميع البصير، ورسوله محمدا عليه الصلاة والسلام، فيما ظنه تقصيرا، واستحضر هيئة تطهيره وتجهيزه، وصورة لحده ، وكيفية

نومه، وساعة سؤاله، إذ تنبئ تصاريف حياته مدى شدته على نفسه بل قسوته عليها فكيف الحال به، وهو على باب الآخرة .. ثم يغلبه الكرى، ويذهب مع ذاته إلى نوم عميق، بعد أن اشتمله الرضا، واحتوته الثقة فى عفو الله وكرمه، وتعاوده اليقظة فيغوص فى أعماقه، وتأخذه الشفقة على أحبابه بدءا بالزوجة والأبناء، ويبقى مع خيط من النور فى ذاكرته يتواصل به مع الدنيا وسائر المكابدات بها.

إن هذا التقدير الإلهى لتكثيف عشرات السنين فى أيام معدودات، كان تهدئة وتهيئة للمغادرة فى سلام واطمئنان من على سرير أبيض، فى مستشفى بسفح جبل فى الطرف الجنوبى الشرقى لمدينة القاهرة، غير بعيد من موضع قدومه إلى الأرض فى بيت صغير بحى (معروف) بالطرف الجنوبى الغربى من هذه المدينة .. إنها ألف متر، أو ألفان تفصل بين المولد فى هذا الحى، والموت فى المستشفى .. تلك هى مسافة الأرض، أما الزمن بين النومة فى المهد والغفوة فى المشفى فتقرب من التسعة والسبعين عاما، وتلك رحلة حياته التى تتقلب بين الألم والأمل، ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[1].

لقد عاش فى سنواته الأخيرة رفيقا للمرض، فمرة يلاحقه فى قلبه، وأخرى فى عينه، وثالثة فى قدمه، وهو مع كل ذلك صابر محتسب، يحيا بالأمل، ولا يعرف اليأس، إلى أن حلت به الأزمة الأخيرة فتساقطت من فمه آهات السنين، وتعمق الألم، وهو يتحول من القوة إلى الضعف ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾[2].

---

(١) الرعد/ ٨ .
(٢) الروم ٥٤ .

وكنت كثيرا ما أراه قلقا ومضطربا، وأتساءل فى حيرة .. كيف لرجل يملك من العلم والمعرفة وتجاريب الحياة أن ينزع إلى الضيق الذى يشمله ، والأنين الذى يسيطر عليه، ولم أكن أعرف أن أمواج حياته لم تشهد إلا القليل من الهدوء منذ الطفولة المبكرة التى نمت فيها أشجار أحزانه، وأثمرت كل مكونات الحسرة والمعاناة .

واذكر فى هذا المقام قول الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[1] .

وعن عبدالله بن عمرو عن النبى ﷺ قال: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا"[2] .

وقال أبو العتاهية:

وكانت فى حياتك لى عظات ∴ وأنت اليوم أوعظ منك حيا[3]

وقال أبو الحسن التهامى فى رثاء ابنه:

حكم المنية فى البرية جار ∴ ما هذه الدنيا بدار قرار[4]

---

(١) الأنبياء ٣٤، ٣٥ .
(٢) رواه الشيخان والترمذى .
(٣) جواهر الأدب للهاشمى جـ١ صـ١٥٧ (هامش).
(٤) السابق جـ٢ صـ٣٨٣ .

وقال أبوذؤيب الهذلى:

وإذا المنية أنشبت أظفارهـــا ∴ ألفيت كـــل تميمـــة لا تنفـــع[1]

واقرأ ما تشاء من الآيات القرآنية والأحاديث النبويـــة والأشـــعار العربية، ويبقى ــ مع ذلك ــ لكل إنسان قصة حياة لا يتفق فيهـــا مـــع غيره، وتتعدد الحكايات الإنسانية والنماذج البشرية على مدار التـــاريخ، وتبقى الصور مختلفة والبدايات والنهايات غير متوافقة.

## ثانيا: المولد والنشأة والتكوين العلمى:

تعود أصول الدكتور رفعت زكى إلى أسرة متوسطة الحـــال يعمـــل أهلها بالتجارة حيث استقرت فى حى معروف بدائرة قصر النيـــل علـــى مقربة من هذا النهر الخالد، الذى يشتكى إليـــه آلاف البـــشر منغـــصات الحياة فى آخر النهار وأول الليل، فإذا ما أقبل الشتاء تكور الناس داخل البيوت إلا ساعات الانفراجات البسيطة للشمس التى تُخرج الأبدان مـــن مكامنها؛ بحثا عن الدفء والانتشار، ولا علاقة لها بما يجرى فى دهاليز السياسة التى كانت تجتاح مصر فى بداية عام ألف وتسعمائة وخمـــسة وثلاثين من الميلاد، وليست عائلة (عفيفى) قليلـــة العـــدد أو كثيـــرة إلا واحدة من الأسر التى تؤمن بأن تسعة أعشار الرزق فى التجارة، لكـــن واحدا من أبنائها اختار لنفسه طريقا آخر هو حياكـــة الملابـــس التـــى أجادها، ولم يتحول عنها ذلك الشاب هو (زكى محمود عفيفى)، والـــذى عندما بلغ مبلغ الرجال، ورغب فى الزواج، اختار فتاة تعمل بالتـــدريس فى مدرسة الأشراف بحى معروف دائرة قصر النيل.

---

(١) ديوان الهذليين صـــ٣ (مصورة عن دار الكتب).

وبدأت المسيرة لهذه الأسرة الناشئة، التى يغيب عنا الكثير من تفصيلاتها، لكن بعضا مما سمعته وراجعته يثير العجب والتأمل والاعتبار وقد ولد زميلنا (رفعت) ــ طيب الله ثراه ــ فى صبيحة اليوم السادس عشر من يناير عام ١٩٣٥م فى حى معروف بالدائرة نفسها، وكانت حياته منذ الصغر معبأة باللوعة والأسى، فقد تقدم عليه فى المجيئ إلى الدنيا أخ له اسمه (إبراهيم)، وأخت أسموها (لواحظ)، ثم توفى الأخ بحمى التيفود، وأنجبت الأم بنتا ثانية سميت (رقية) وماتت الأم، ولم يتجاوز (رفعت) ست سنوات ولحقتها البنت الثانية، واكتمل مسلسل الموت بوفاة البنت الأولى، ولم يكن صاحبنا قد تجاوز السابعة من عمره، ولعله لم يكن على دراية بما يجرى أمامه أو حوله، ولم يبق على مرمى بصره سوى اثنين، انحصر تفكيره فيهما وسط هذه الأجواء المعبأة بالأسى والحزن والدموع إنهما: الأب وأمه أى الجدة لهذا الطفل، الذى بدأ هزيلا ضئيلا تتلقفه يد من يد، وتتلقاه بعض النسوة من الجيران بالتراحم والإشفاق وبعض الحلوى ومصمصة الشفاة أحيانا، ولكن الوقت الذى تتجسد فيه هذه المعاناة لم يطل، إذ حسم الوالد الأمر، وأسلم ابنه الوحيد الباقى من حصاد الموت إلى أمه (الجدة) التى آلت إليها مسئولية النشأة والإعداد والمحبة الغامرة لهذا الطفل الذى ماتت أمه ورحل أخوته، وغاب أبوه فى حياة مستقلة بزواج جديد، إذ رأى أن تربية ابنه مع الجدة أفضل له من الحياة مع زوجة أب، ربما لا يمكن توجيه مشاعرها إليه بعطف وإحسان.

تعلق صاحبنا بجدته وأحبها لمحبتها له، وأسلمته إلى كتاب الشيخ معروف؛ ليبدأ رحلته مع التعليم بحفظ القرآن الكريم، فلربما يكون له

شأن فى هذا الطريق، واستجابة لرغبة أمه (المدرسة) ووصيتها فى أن يلتحق أبناؤها بالتعليم، وكانت الجدة محيطا لدائرة هذا الطفل، الذى بدأت تتجلى قدراته فى حفظ القرآن الكريم، وتحقيق نجاحات فى التعليم العام، حيث انتظم فى مدرسة الترقى الأولية بمعروف، وحصل على شهادة إتمام الدراسة الابتدائية عام ١٩٥٣م وأتم حفظ القرآن الكريم بمدرسة جمعية المحافظة على القرآن الكريم، وحصل على الشهادة الابتدائية الأزهرية (منتسبا عام ١٩٥٤م) وواصل التعليم الأزهرى فى الوقت ذاته إذ حصل على الشهادة الإعدادية من وزارة التربية والتعليم عام ١٩٥٧م[١] ونعجب على عزيمة هذا الطفل الذى استطاع الجمع بين طريقين فى الدراسة هما التعليم العام والدراسة بالأزهر، خاصة أن متطلبات التعليم بالأزهر كانت بمثابة حجر عثرة يصد كثيرا من النابهين فما بالك بطفل فى مثل هذه الأحوال، التى كانت دافعا للجد والاجتهاد والسعى إلى تحقيق الأمانى، التى بدأت تنمو فى وجدانه منذ بواكير حياته.

وكانت الحياة التى عاشها زميلنا وقت تعلمه بالابتدائى والثانوى فى الأزهر ليست هينة لينة على الإطلاق، فكانت المعاناة من جفاف الحياة وعسر الإنفاق، ولم تكن متطلبات التعليم بالأزهر متاحة بشكل مرض حتى للبسطاء، الذين يحيون على هامش المجتمع، وأخذ صاحبنا يشق طريقه بين الأعاصير التى أحاطت به فبدأ يعمل مصححا لغويا فى المسرح العالمى، وأتاح له ذلك كثيرا من الصقل اللغوى الذى تهيأ له

---

(١) مسيرة التعليم للدكتور رفعت غير واضحة فيما يتصل بجمعه بين الدراسة فى الأزهر والدراسة فى التعليم العام، وقد أثبتنا ما كان مرتهنا بشهادات مؤرخة ومعتمدة.

من دراسته فى كلية اللغة العربية بالأزهر الشريف التى تخرج منها عام ١٩٦٥م وحصل على شهادة الإجازة العالية (الليسانس) بتقدير جيد جدا، تخصص الشعبة الأدبية، وأدرك بعد ذلك أن حملا ثقيلا قد سقط من فوق ظهره، وأخذ يتطلع إلى مستقبل مضيئ تنقشع فيه حوالك الأيام ونكبات السنين، وبدأ يتطلع إلى احتياجات نفسه، ومتطلبات من حوله بدءا من الوالد فى القاهرة، والعم فى السويس، وبعض الأعمام والأقارب الذين تناثرت بقاياهم فى أماكن أخرى.

**ثالثا : العمل والزواج والأبناء:**

طوى صاحبنا صحائف الماضى بما فيها من هموم النشأة وآلام السنين تحت مظلة جدة عجوز توشك شمس حياتها على المغيب، أو لعلها آنذاك قد توارت بعد أن وصلت بحفيدها إلى بعض الشواطئ الآمنة فى مرافئ الحياة، واستقبل صاحبنا بكل الأمل والرغبة فى الحياة قرار تعيينه مدرسا للغة العربية فى التعليم الإعدادى بمحافظة بنى سويف فى الثلاثين من سبتمبر عام ١٩٦٥م، واستقر به المقام فى عمله الجديد، الذى سعد به، ولم يتضجر من بعده عن مرابع طفولته وصباه، فقد كان للوظيفة الحكومية آنذاك بريق يزهو به صاحبها، خاصة إذا آلت إليه بعد عنت الواقع، واشتياق للمستقبل الرغيد، وزها ــ رحمه الله ــ بعمله، لكنه لم يقنع بما حصله من علوم ومعارف، فسعى إلى الارتقاء بوظيفته فانتسب إلى كلية التربية جامعة الأزهر، وحصل منها فى أول عام بوظيفته على دبلوم التربية العالى عام ١٩٦٦م بتقدير جيد جدا فاكتسب خبرة تربوية جديدة أسهمت فى إجادته لعمله، وحسن نهوضه بالمسئولية التى أوكلت إليه بمسيرة الحياة.

وأطال النظر إلى من حوله فوجد فى عمه (حسنى محمود عفيفى) الذى يعمل ويقيم بالسويس السند الاجتماعى المعين، وكان ذلك إرهاصا لمزيد من التقارب فتزوج كريمته (لطيفة) [١] التى جمعت الحياة بينهما بالزواج فى الثامن عشر من أكتوبر عام ١٩٦٧م، وانتقلت معه إلى بنى سويف، واستقرا فيها، ورزقا بأول المواليد وهى (عفاف) التى كانت إحدى بشارات الخير[٢] وأول ثمرات الأمل، حيث أفاض عليها من عطفه وتحنانه بما لم يكن متاحا له ولا لإخوته الثلاثة، الذين جمعهم الموت بأمهم فى بواكير الحياة٠

وانتقل صاحبنا بأسرته من عمله فى بنى سويف إلى القاهرة، وأقام فى حى شبرا، حيث يعمل مدرسا فى تخصصه بإدارة شمال القاهرة التعليمية، متنقلا بين بعض المدارس الإعدادية والثانوية، وهو سعيد فى عمله، هانئ فى حياته، وفاض الخير عليه بمولودة ثانية هى (عبير) [٣]، وسعد بها ، وصارت البنتان محل البهجة والرضا، وتتحرك سفينته فى مياه حياته الهادئة، وترسو على الشاطئ مع إنجاب ابنه (أحمد) [٤] فصار مع أختيه وأمهم الدائرة التى يطوف بها صاحبنا فى الليل والنهار٠

وقد واصل ــ فى ظلال هذا الجو المفعم بالأمل والحب ــ تربية أبنائه، وتنشئتهم التنشئة الإيمانية الصالحة، وجعل من مسئولياته ــ آنذاك ــ البر بوالده، وحسن التعامل مع عمه (والد زوجته) فى

---

(١) هى السيدة/ لطيفة حسنى محمود عفيفى ٠
(٢) ولدت عفاف فى ١٥ / ٧/ ١٩٦٨م٠
(٣) ولدت عبير فى ١٨/ ٥/ ١٩٧٠م٠
(٤) ولد أحمد فى ٣٠/ ٥/ ١٩٧٤م٠

السويس، والتواصل مع سائر أقاربه فى (معروف) و(شبرا) أو فى غير ذلك من ربوع الوطن.

وبدأ يتحسس طريقه، ويراجع تاريخه، ويلتقى بزملائه الأزهريين، سعيا إلى العمل فى الجامعة، وإن كان الأمل أمامه يتضاءل خاصة بعد أن تجاوز الخامسة والأربعين من عمره، إلى أن تبسمت له الحياة بعد طول عبوس وانتظار، فقد أدرك بصيصا من ضوء فى آخر النفق، ولم يلبث الضوء على حاله، ولكنه بدأ يتسع، فكان النظر إليه والتأمل فيه، ومن ثم كان الارتقاء بالوصول إلى بداية مرحلة جديدة.

**رابعا: العمل فى الجامعة، والترقى بالبحوث والمؤلفات:**

**١ـ العمل معيدا فى الأدب والنقد:**

عمل الدكتور رفعت خمسة عشر عاما مدرسا بالتعليم الإعدادى والثانوى فى محافظتى بنى سويف والقاهرة، ولكن طموحاته التى لم تمت قد بقيت حية نابضة فى وجدانه، يهفو بها إلى العمل فى جامعة الأزهر، والتى تخرج من إحدى كلياتها بتقدير أيقن أنه يستحق به أن ينتقل إلى مستوى مختلف عن الوضع الذى يحياه، فجاءت إليه الفرصة ــ وإن كانت متأخرة ــ لكنها أثلجت صدره، وأذابت الجليد من طريقه، وذلك بصدور قرار تعيينه معيدا فى قسم الأدب والنقد بكلية اللغة العربية فى الزقازيق، حيث تسلم هذا العمل الجديد فى الثالث والعشرين من نوفمبر عام ١٩٨٠م، وكان يعتبر نفسه (آنذاك) كما تقول السيدة حرمه من أسعد خلق الله على الأرض، وانتقل بهذا التحول إلى الجلوس طالبا بالدراسات العليا فى الكلية، التى تخرج منها فى القاهرة، وتوزع وقته بين العمل الخفيف فى الزقازيق، والدراسة الجادة فى القاهرة، وقبل أن

يتم هذه المرحلة بدأت قضيته مع المرض، إذ تقدم فى شهر يوليو عام ١٩٨٣م بطلب للعلاج من وجود غضروف بالركبة اليسرى يسبب ضغطا على أعصاب الساق، ويؤثر على حركته وانفعاله، واستجيب لطلبه حسب الإجراءات المتبعة، ولكن هذا الأمر لم يترك تأثيرا على مسيرته العلمية والتعليمية وأتم بتوفيق الله وعنايته هذه المرحلة الدراسية العالية، وبدأ يتطلع إلى ما بعدها ٠

**٢ ـ رسالتا الماجستير والدكتوراه:**

انتقل صاحبنا إلى مرحلة دراسية تخصصية تحت إشراف أحد الأساتذة، وتجلى ذلك ــ ابتداء ــ فى تسجيله لرسالة (التخصص) الماجستير فى موضوع بعنوان "أثر المنفى فى شعر البارودى وشوقى" تحت إشراف الدكتور/ طه مصطفى أبوكريشة ٠

وجاء فى مقدمة هذه الأطروحة ــ "هذا بحث أقدمه عن "أثر المنفى فى شعر البارودى وشوقى" وقد حظى الشاعران باهتمام كبير من الدارسين فى الأدب العربى الحديث، وأخرجت المطبعة العربية عددا من الكتب والدراسات التى تتناول هذين الشاعرين ، ونتاجهما دراسة، وبحثا، ونقدا"(١) ٠

وتقسمت هذه الدراسة إلى أبواب وفصول، وجاء الباب الأول بعنوان (حياة الشاعرين) واختص كل واحد منهما بفصل خاص به، وجعل الباب الثانى بعنوان "شعر البارودى وشوقى .. فى المنفى" وجعله من فصلين كسابقه، ثم عمد إلى صلب الموضوع، المتمثل فى الباب الثالث وعنوانه "الموازنة بين الشاعرين فى موضوعات شعر المنفى" ٠

---

(١) أثر المنفى صـ أ ٠

واستجابت طبيعة الدكتور/ رفعت لأطياف الحزن التى تجلت فى شعر البارودى، وخاصة القصيدة المتميزة (طيف سميرة) يقصد ابنته التى تعد واسطة العقد فى أبناء هذا الشاعر الملقب برب السيف والقلم، والذى ترك عند نفيه من مصر زوجته (عديلة) وأبناءه منها وهم (محمد وسمية وسميرة وسرية وستيرة) وأورد صاحبنا من هذه القصيدة مجموعة أبيات .. وفى آخرها قول البارودى:

فيا بعد ما بينى وبين أحبتى ∴ ويا قرب ما التفت عليه الضمائر

واستحوذت على صاحبنا فكرة الموت وهو فى الخمسين، ولعله قد تأثر برؤية هذا الشاعر الكبير، وأثبت له قوله:

كل حى سيموت ∴ ليس فى الدنيا ثبوتْ
حركات سوف تفنى ∴ ثم يتلوها خفوت
وكلام ليس يجلو ∴ بعده إلا السكوت
أيها السادر قل لى ∴ أى ذاك الجبروت؟[1]

وجعل من اختياراته لأحمد شوقى الأندلسية الرائعة التى يتشوف فيها إلى مصر:

يا نائح الطلح أشباه عوادينا ∴ نشجى لواديك أم تأسى لوادينا
ماذا تقص علينا غير أن يدا قصـ ∴ ـت جناحك جالت فى حواشينا

وعرض لأوجه الاتفاق وأوجه الاختلاف بين هذين الشاعرين، وتحدث فى الخاتمة عن نتائج البحث.

(١) الرسالة صـ١٦٣ .

ولا شك فى أنه قد بذل جهدا متميزا، وأخرج أطروحة جيدة، فبرغم ما كتب عن البارودى وشوقى فإن هذا البحث جدير بأن يطبع وينشر للقراء والباحثين، وقد بلغت صفحاته أربعمائة وستا وعشرين، وتجلت فيه توجيهات المشرف، من حيث المنهج العلمى التتابعى، الذى تمخض عن هذا العمل المتفرد، والذى استحق به صاحبه درجة التخصص (الماجستير) فى الأدب والنقد من كلية اللغة العربية جامعة الأزهر بالقاهرة بتقدير "امتياز" وموافقة مجلس جامعة الأزهر على منح هذه الدرجة فى الثامن والعشرين من سبتمبر عام ١٩٨٥م .

واستطاع بهذا المؤهل الجديد أن يصعد درجة جديدة فى سلمه الوظيفى ، فتم تعيينه مدرسا مساعدا فى قسم الأدب والنقد بكلية اللغة العربية بالزقازيق، وذلك فى التاسع عشر من نوفمبر عام ١٩٨٥م وسعدت أسرته بهذه النجاحات فى ظل الهدوء الذى تحياه ، وتسهم فى تحقيقه ابنة عمه وشريكة حياته وأم أبنائه الثلاثة.

واستلزم هذا التصعيد العلمى أن ينتقل إلى مرحلة دراسية جديدة، فشمر عن ساعد الجد، وبدأ السعى إلى انتقاء موضوع جديد ليسجل فيه بحثه لرسالة العالمية "الدكتوراه" فاعتمد على الله تعالى، واستعان بأساتذته فى كلية اللغة العربية بالزقازيق التى انتقلت دراسته إليها، واستكمل الإجراءات المتبعة لتسجيل رسالة العالمية "الدكتوراة" وهو: "فن الخطابة فى مصر بين ثورتى ١٨٨١م ــ ١٩٥٢م" بإشراف الدكتور/ حسن أحمد الكبير، وكان طالب هذا البحث قد تجاوز عمره الخمسين عاما، لكن الذى يشفع له أن همته كانت عالية، وطموحه فى عبور هذه المرحلة كان قويا، وأن تجربته الموفقة فى إتمام رسالة

الماجستير شجعته على المضى قدما فى هذه الدراسة، التى امتدت مساحة الزمن المدروس فيها إلى أكثر من سبعين عاما، وهى الفاصل بين الثورتين (العرابية والناصرية)، وأن تعدد فنون الخطابة يجعل إتمام الموضوع مسألة ليست هينة على الإطلاق، وليس من السهل تقديم صورة تنويرية كاشفة لهذه الدراسة، التى وصلت صحائفها إلى خمسمائة وخمس وثلاثين صفحة من القطع الكبير، وتوزعت خطتها على مقدمة وتمهيد وأربعة أبواب، كل واحد منها ذو فصول متعددة تزيد وتنقص حسب طبيعة الموضوع.

وتحدث فى المقدمة عن دوافع اختياره لهذا الموضوع، وختمها بقوله: "ولقد بذلت جهدى فى أن يخرج البحث فى صورة علمية تتناسب مع جلال الموضوع الذى تناولته، ولم آل جهدا فى هذا السبيل، فإن كان قصور فليس عن تقصير، والله أسأل أن أكون قد وفقت فيما أنجزت من عمل، فالله من وراء القصد، وهو الهادى إلى سواء السبيل"[1] .

واستعرض فى التمهيد تاريخ الخطابة فى العصر الجاهلى، وفى عصر صدر الإسلام، واختار بعض النماذج من خطب الرسول ﷺ وخطب الصحابة والتابعين، وتعقب تاريخ الخطابة فى العصور الأدبية: الأموى والعباسى والفاطمى ، وكان بناء الأزهر الشريف من مآثر هذا العصر الأخير.

وجاء الباب الأول بعنوان: "الخطابة فى ظلال الثورة العرابية" وقسم البحث فيه إلى ثلاثة فصول، ثم جاء الباب الثانى تحت عنوان "فن الخطابة فى مطلع القرن العشرين"، وانعقد الكلام فيه من ثلاثة فصول.

---

(١) رسالة: فن الخطابة فى مصر صـ و .

أما الباب الثالث فعنوانه "فن الخطابة فى مرحلة مقاومة الاحـــتلال، وتوزع البحث فيه على ثلاثة فصول، والتى كان جل البحث فيهـــا عـــن الخطابة فى ظل ثورة عام ١٩١٩م٠

وجعل الباب الرابع بعنوان "الخطابة من بداية الحكم النيـــابى حتـــى ثورة عام ١٩٥٢م"٠

وانتهى إلى الخاتمة التى أثبت فيها بعض النتـــائج، التـــى توصـــل إليها، وأوضح بعض مشقات البحث، وخاصة جمع المادة العلمية، والتى تمثلت فى الخطب التى تعد العمود الفقرى لصلب البحث ، وذكر أنه تغلب على هذه الصعاب بالدأب والمثابرة والصبر الجميل، وانتهى بالدعوة إلى عناية الجامعة بإعطاء هذا الفن مزيدا من الاهتمام، وتخـــصيص بعـــض المحاضرات لتدريسه بالصورة الملائمة، وانتهت الرسالة ببيـــان لأهـــم المصادر والمراجع٠

وأعتقد أن إنجاز بحث بهذا الاتساع فى ثلاث سنوات ليـــدل علـــى مقدار الجهد ، وحجم المعاناة، التى عاشها صاحبنا تحت رعاية تامة من الأستاذ المشرف، وتم استكمال مفردات البحث فى هذه الأطروحة، التـــى اعتمدت على الخطابة وهى فن أدبـــى نثـــرى يتـــوازى مـــع موضـــوع الماجستير، والذى كان فن الشعر أرضا مخصبة له، وبذلك جمع الدكتور رفعت بين الشعر والنثر، وهما مادة البحث وأساس الـــدرس فـــى قـــسم الأدب والنقد بكليات اللغة العربية والكليات المناظرة لها، وقـــد نوقـــشت هذه الرسالة، واستحقت إعجاب اللجنة، وسائر المتخصصين والمتابعين، وحصل صاحبها على تقدير "مرتبة الشرف الأولى" وتم إقرار هذه الدرجة بمجلس جامعة الأزهر فى الثالث والعشرين من أغسطس عـــام ١٩٨٨م

ولم يكن الظفر بهذه الدرجة عملا هينا، وإنما كان ثمرة لجهد شاق وبحث متواصل، وترحال دائم بين مكان العمل فى الزقازيق والمكتبات العامة فى القاهرة، ومسئولية الأسرة وسائر التبعات التى تتطلبها مسيرة الحياة ، ولم يبق فى هذه المرحلة إلا التعيين فى درجة مدرس للأدب والنقد فى كليته، التى يعمل بها، وذلك ما تحقق فى الثانى من نوفمبر عام ١٩٨٨م٠

وهكذا تحصنت مكانته فى الجامعة بعد ثمانى سنوات اجتاز فيها مرحلة الدراسات العليا، وأتم رسالتى الماجستير والدكتوراه، وصولا إلى التعيين فى درجة مدرس، وهى ــ بعد كل ذلك ــ أول الدرجات فى السلم الوظيفى لأعضاء هيئة التدريس٠

**خامسا: بحوث الترقى إلى درجة أستاذ مساعد :**

لم يتمهل صاحبنا كثيرا بعد حصوله على الدكتوراه، وتعيينه مدرسا للأدب والنقد، إذ ابتدأ التفكير فى إعداد متطلبات الترقى إلى درجة (أستاذ مساعد) حسب النظام المعمول فى جامعة الأزهر، وغيرها من الجامعات ، ولا يكون ذلك إلا بالكتب والبحوث المتفردة، والتى يلزم عرضها على اللجان العلمية المتخصصة، وقد شرع فى تأليف أول نتاج علمى يخرجه بلا إشراف من أستاذ أو لجنة معينة .. بمعنى أن البحث والإعداد نابع منه، وليس لأحد تدخل فيه، إلا ما كان من استشارة الآخرين، واختار طريق النقد الأدبى، ليكتب فيه، والذى يحتاج إلى قراءة فاحصة، ومراجعة دقيقة، وعمل جاد، فأخرج أول كتاب له وهو:

**١ ـ من مظاهر النقد الأدبى عند العرب** ، والذى طبع عام ١٩٩٠م[١] فى ثلاثمائة وأربعين صفحة، ولسوف أعتمد على ما جاء بتقرير اللجنة العلمية المتخصصة[٢] بالفصل فى مدى استحقاقه بالبحوث المعروضة؛ للترقى إلى الدرجة المذكورة، وأنقل توصيفها لهذا الكتاب، حتى اختيارها لاسم المؤلف، حيث عبرت عنه بكلمة "الباحث" فقالت فى التقرير:

**أولا:** كتاب (من مظاهر النقد الأدبى عند العرب) وفيه تناول الباحث بعض القضايا النقدية فى دراسات القدماء والمحدثين، وبدأ ببيان ماهية النقد ووظيفته، كما تعرض لموضوع نشأة النقد الأدبى وتطوره منذ العصر الجاهلى، حتى العصر العباسى الثانى، مبينا أبرز القضايا النقدية، التى وجهت الأدب العربى خلال تلك العصور، مشيرا إلى ما كان للقرآن الكريم من أثر فى تطور حركة النقد الأدبى، وتعرض الباحث لقضية الذاتية والموضوعية فى النقد الأدبى، مشيرا إلى آراء النقاد المرتبطة بهذا الموضوع.

ثم انتقل الباحث بعد ذلك إلى بيان صلة النقد بالعلوم الإنسانية، مثل علم الجمال واللغة، وعلم النفس، والاجتماع والتاريخ، مبينا وجهة نظر النقاد فى بيان مدى ارتباط النقد بهذه العلوم، ثم عرض الباحث فى إيجاز لموضوع مناهج النقد ومدارسه، فتحدث عن المدرسة التاريخية، التى ذهب أنصارها إلى الربط بين النص والأديب فى بيئته الزمانية والمكانية، ثم عن المدرسة الجمالية التى اتخذت المنهج الفنى سبيلا لها فى تقويم العمل الأدبى .. وأخيرا تحدث عن المدرسة الشاملة التى ينادى أصحابها

---

(١) أخرجته دار الطباعة المحمدية عام ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.
(٢) اللجنة العلمية المعتمدة للفصل فى الترقية مشكلة من أ.د/عبدالرحمن عبدالحميد على وأ.د/ حسن أحمد الكبير وأ.د/صلاح الدين محمد عبدالتواب.

بأهمية الأخذ بأطراف المناهج جميعها، وأشار الباحث، إلى أن هذا المنهج يضفى على العملية النقدية لمسات فنية ترقى بالعمل الأدبى وتدفعه إلى مزيد من الكمال.

وانتقل الباحث بعد ذلك إلى الحديث عن ثقافة الناقد، وأنه بحاجة إلى معرفة علوم اللغة والمناهج النقدية المختلفة، بجانب الثقافة التاريخية والنفسية بما يساعده على فهم الأبعاد التاريخية للأدب، والظروف النفسية للأديب، ثم تناول الباحث موضوع المذهب بين الأدب والنقد، فعرف بالمذهب الأدبى وبالمذهب النقدى، وبين أمثلة للمذاهب النقدية. وفى تناوله لموضوع (الموازنات) كان أهم ما ركز عليه: الموازنة بين أبى تمام والبحترى للآمدى، والوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى الجرجانى، وذكر منهج المؤلفين فى الكتابين، والقضايا النقدية التى تعرضا لها، ثم ذكر قيمة الكتابين فى مجال النقد الأدبى، ثم تحدث عن أشهر رواد النقد الأدبى من القدماء، مبينا جهودهم وأهم مؤلفاتهم، ثم أنهى الباحث كتابه بالحديث عن عمود الشعر العربى، وذكر أبرز النقاد القدماء الذين تناولوا هذه القضية، وأبدوا آراءهم فيها، ثم ألمح إلى نظرة النقد الحديث إلى قضية عمود الشعر، مبينا رأى كل من الدكتور غنيمى هلال والدكتور القط فى هذا الموضوع .. ولقد كان واضحا أن الباحث فى كتابه (من مظاهر النقد الأدبى عند العرب) قد بذل جهدا ينم عن شخصية جادة، تتمتع بحس نقدى واع، كما تكشف هذه الدراسة عن سعة إطلاع الباحث ووقوفه على كثير من المراجع ذات القيمة العلمية فى مجال الدراسات النقدية، مما يحسب للباحث فى مجال التقدير، ويعد هذا البحث فى المستوى الجيد".

**٢ ـ كتاب (المدارس الأدبية الأوربية وأثرها فى الأدب العربى)** والمطبوع فى مائة وثمان وخمسين صفحة[١]، وكشفت اللجنة عن هذا الكتاب فقالت: "ثانيا: كتاب المدارس الأدبية الأوربية وأثرها فى الأدب العربى، وفيه يتناول الباحث دراسة كل من الكلاسيكية، والرومانتيكية والواقعية والمذهب البرناسى والرمزية والمذهب السريالى، والوجودية، من حيث النشأة، والأسس التى قامت عليها هذه المدارس، والاتجاه الأدبى الذى تمثله كل مدرسة، وأشهر أعلامها وأبرز الخصائص، التى تتميز بها فى مجال الدراسات الأدبية، ثم تحدث عن صلة أدبنا العربى الحديث بمعظم هذه المدارس الغربية ومدى تأثره بها فى أجناسه الأدبية المختلفة، ورأى الباحث أنه على الرغم من تأثر أدبنا العربى الحديث بهذه المدارس إلا أن هذا التأثر لم يكن عقيدة ولا مذهبا خالصا لأدبائنا؛ لما فى الأدب العربى من خصائص تميزه، ويتفرد بها عن كل هذه المدارس ذات الفلسفات والنظريات التى لا تتفق مع الطابع العربى الأصيل ، وفى الفصل الثانى من الكتاب تناول الباحث المسرحية فى عصر النهضة فأوجز الحديث عن تاريخ المسرح وتطوره، كما تحدث عن المسرح الرومانتيكى، وأوجه اختلافه عن المسرح الكلاسيكى، وتحدث فى إيجاز عن تاريخ المسرحية فى الأدب العربى، والخصائص العامة لأدب المسرح العربى وتطوره، وتأصل الأدب المسرحى فى عصرنا الحديث، ثم انتقل إلى الحديث عن القصة على لسان الحيوان، مشيرا إلى نشأة هذا اللون الأدبى وخصائصه الفنية، ثم كان الفصل الثالث من الكتاب حيث تناول الباحث الأجناس الأدبية النثرية، فتحدث عن القصة النثرية

---

(١) طبع بدار الطباعة المحمدية عام ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

وتطورها فى عجالة تاريخية، منذ الأدب الجاهلى، حتى أدبنا الحديث مشيرا إلى فن المقامات وما كان له من أثر فى الأدبين الأوربى والعربى، ثم خلص إلى الحديث عن فن القصة فى أدبنا العربى الحديث، وتأثر القصة القصيرة فى مصر والبلاد العربية بظهور هذا الفن فى أوربا منذ القرن العشرين، وذكر أشهر كتابها فى أدبنا العربى الحديث، كما أشار إلى عناصرها الفنية التى تعتمد عليها ٠

والكتاب بهذا التناول يكشف عن استعداد طيب من جانب الباحث، للوقوف على مظاهر التأثير والتأثر بين الأدبين الأوربى والعربى بجانب الكشف عن نواحى الأصالة فى أدبنا العربى، وقد رجع الباحث إلى كثير من المراجع المتصلة بالأدب الحديث، مما له صلة مباشرة بموضوع الكتاب، ويعد بحثه فى المستوى الجيد"٠

إن هذه الموضوعات وثيقة الصلة بما بحثه صاحبنا فى كتاب الأدب المقارن، فتم ضم هذه الموضوعات إليه، كما سنشير إلى ذلك فى سطور تالية٠

**٣ـ بحث بعنوان "النظم عند عبدالقاهر الجرجانى بين النظرية والتطبيق"[١]**

يعد هذا الموضوع من بدايات الدكتور رفعت فى التأليف والإعداد البحثى ، وقد رأى أن يسهم فى الكتابة بمجلة الكلية التى يعمل بها فتقدم بالموضوع المذكور مع أن دلالات العنوان تؤكد ارتباطه بالدراسات البلاغية، ولا علاقة له بطريقة مباشرة بما يدرس فى الأدب والنقد، ويبدو أنه كان شديد التعلق بالتراث العربى القديم، والذى لم يتحقق فيه

(١) مطبوع بمجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق العدد الحادى عشر (المجلد الثانى) لعام ١٩٩١م من صـ٨٦ إلى صـ١٢٠

الفصل التام بين البلاغة والأدب، بل إن الدراسة فى كلية اللغة العربية كانت تجمع بين الأدب والبلاغة والنقد، لكن الواقع الذى كتب خلاله هذا البحث يشهد بتميز الدراسات البلاغية عن الدراسات الأدبية ٠

وقد عرض لنظرية النظم ومعناه وكيفيته، وترتيب الألفاظ على حسب ترتيب المعانى، ومراعاة مقتضى الحال، وشرع فى دراسة النظم من الناحية التطبيقية فى الكلمة والجملة، وختم البحث بعنوان هو: الصور الأدبية والموازنة بينها، ولعل ذلك يأخذ بيد القارئ إلى ما يشم منه روائح الدرس الأدبى، وأنهى الموضوع بتأكيد الحرص على أن تكون نظرية النظم فى خدمة القرآن الكريم٠

وعرضت اللجنة المختصة لهذا البحث، وانتهت إلى قولها: "والبحث وإن كان يغلب عليه طابع الدراسات البلاغية مع تكرار الكتابة فى قضية النظم عند عبدالقاهر الجرجانى إلا أن استيعاب الباحث للموضوع، وحسن عرضة له مع إبرازه للجانب التطبيقى فيه يحسب له، ويضع بحثه فى المستوى المقبول"٠

### ٤ـ بحث بعنوان "مناهج القصيدة العربية عند النقاد القدامى"[١]

هذا البحث بالعنوان المذكور يقتحم به صاحبه مجال تخصصه الأدبى والنقدى، حيث عرض لعدة مكونات يلتئم منها منهج القصيدة العربية، الذى وضعه القدماء، وجدد فيه المحدثون ، وبدأ الحديث عن الوحدة العضوية عند النقاد المتقدمين، واستعان بأساتذته الأزهريين فى إيضاح دلالات الوحدة العضوية، فرجع إلى كتابات الدكتورين/ حسن جاد

(١) مطبوع بمجلة جامعة الأزهر للدراسات الإسلامية والعربية فرع الزقازيق العدد الثانى عشر لعام ١٩٩٢م من صـ٦٩٦ إلى صـ٧٢٥ ٠

ومحمد عبدالمنعم خفاجى، فضلا عن بعض النقاد الآخرين، مثل الدكتورين محمد غنيمى هلال ومحمد مندور ٠

وتحدث عن مطلع القصيدة، وتنوع المطالع، وشروط المطلع، معتمدا ــ كما ذكرنا ــ على القدماء فقال: "اتفق النقاد القدامى على وجوب اهتمام الشاعر بتجويد وتحسين مطلع قصيدته شكلا ومضمونا ٠

فالقاضى الجرجانى يرى أن الشاعر الحاذق يجتهد فى تحسين الاستهلال والتخلص، وبعدهما الخاتمة"(١) ، فهو يصف الشاعر الذى يجتهد ويحسن فى استهلال قصيدته بالحاذق الماهر"(٢) ٠

وكتب عن مذاهب الشعراء فى الابتداء، وختام القصيدة، والمدى الذى تصل إليه روعة الختام، وأنهى هذا البحث بما ينبغى أن تكون عليه القصيدة العربية، وذلك من حيث المطلع الجيد، وترابط أجزائها، والختام الذى يصل إلى قمة الأداء فى العمل الفنى، وهذا ما أسماه: المنهج العربى الأصيل الذى ينبع من البيئة العربية، ويعبر عن لغتها وحضارتها وسلوك أهلها ٠

وكانت اللجنة السابق ذكرها قد أشادت بهذا البحث؛ لما يتضمنه من آراء نقدية لها وزنها وأثرها فى أدبنا العربى، قديمة وحديثة على السواء، وانتهت إلى أن هذا النتاج المتحدث عنه يرقى بصاحبه لشغل درجة أستاذ مساعد بقسم الأدب والنقد فى كلية اللغة العربية بالزقازيق عن جدارة واستحقاق ٠

---

(١) نقلا عن الوساطة للجرجانى صـ٤٨ ٠
(٢) مجلة جامعة الأزهر ــ فرع الزقازيق عام ١٩٩٢م صـ٧٠٤ ٠

وتواصلت المراجعات إلى أن أقر مجلس الجامعة هذا الترقى فى الخامس من مايو عام ١٩٩٣م، وصاحبه فى محل إعارته بالمملكة العربية السعودية .

**سادسا: الإعارة إلى السعودية:**

إن الدرجة المرقى إليها زميلنا قد أكسبته ثقة كبيرة فى نفسه، والتى انعكست آثارها عليه، وعلى أهل بيته خاصة أبناءه الثلاثة، وأعطته زادا نفسيا وعلميا وإيمانيا فى وظيفته بجامعة الأزهر، وفى حياته الجديدة التى عاشها أثناء إعارته إلى كلية المعلمين فى بيشة بالسعودية من عام ١٩٩٢م إلى عام ١٩٩٧م إذ قضى خمس سنوات أضافت الكثير إلى شخصيته فى الجوانب المتعددة، التى يتغير بمقتضاها وجود الإنسان خارج مرابع طفولته ورجولته، وقد تحسنت أوضاعه المالية، وشرع على التوالى فى تزويج بنتيه، ثم ابنه فى مرحلة تالية، وانتقل إلى محل إقامة جديد بمدينة (قباء) فى القاهرة ولربما كانت هذه السنوات الخمس مرحلة زمنية هادئة حط فيها رحاله، والتقط بها أنفاسه، ولذا تأثرت فيها نشاطاته الأدبية والنقدية، وقد وجد نفسه بعد العودة من السعودية قد تجاوز الثانية والستين من عمره، وأصبح قريبا من الخروج إلى المعاش، دون استجماع لمستلزمات الترقى إلى درجة جديدة ، فكان الشروع فى استكمال بعض كتاباته وطبعها .

**سابعا: المؤلفات الأخرى:**

لقد أتم صاحبنا مدة إعارته دون أن يطبع شيئا من الكتب أو البحوث أو المقالات، التى تحفزه على التقدم للترقى إلى درجة أستاذ، والتى بقيت أمامه غير مستكملة لمتطلباتها، ويبدو أنه قد أعد شيئا من

ذلك، ولكنه لم يشرع فى طبعه إلا بعد أن استقر به المقام فـــى القـــاهرة بمحل سكنه الجديد إذ أفاض من أبوته وعطفـــه وكرمـــه علـــى أهلـــه وأقاربه، وكان حبه لبنتيه (عفاف وعبير) بـــلا حـــدود، وفكـــان يخـــاف عليهما، حتى من نسمة هواء رطبة أو جافة، خاصة بعد أن انتقلت كـــل واحدة منهما إلى حياة زوجية جديدة، بينما كانت رغبته غير محدودة فى تنشئة ابنه (أحمد) نشأة إيمانية قوية، وكان هذا الحرص يولد لديه عنتا ومشقة، لكنه غير ناس لما يجب عليه فعله مع الكلمة التى يقرؤهـــا أو يكتبها، ثم ينتقل بها إلى مجلة أو كتاب يحمل اسمه، ويعبر عن رؤيتـــه ويتداوله الطلاب والباحثون، وأسفر كل ذلك عن هذه المطبوعات:

**١ـ بحوث فى الأدب المقارن:**

استجمع صاحبنا كل قدراته المعرفية فى مجـــال تخصـــصه فقـــدم للمكتبة العربية كتابا متميزا فى الأدب المقارن، إذ أن الكتابة فـــى هـــذا الفرع من الدراسات الأدبية قليلة وغير ذائعة فى الجامعـــات المـــصرية، وربما لم تتمخض هذه الدراسات إلا عن القليل الذى يعد مرجعا فى بابه منذ أن تأسس هذا العلم بمبادرات الفرنسى "فان تيجم" فى القرن التاسع عشر الميلادى.

وكانت الدراسة فى هذا الحقل قد أينعت بعدد قليل من النقاد العرب أمثال العلامة الدكتور محمد غنيمى هلال ، إذ يعـــد البحـــث فـــى الأدب المقارن من النشاطات الشاقة التى تحتاج إلى جهد خارق، وبحث دؤوب، وربما تكون المعرفة الشاملة للغة أجنبية (فرنسية أو إنجليزية) مثلا ذات أهمية بالغة فى تعميق البحث فى هذا العلم .

لقد أخرج الدكتور رفعت هذا الكتاب مطبوعا لأول مرة عام ١٩٩٧م ، وقد ضم إليه معظم أو كل ما كتبه قبلا تحت عنوان "المدارس الأدبية الأوربية، وأثرها فى الأدب العربى"[١].

أما اختيار العنوان للكتاب المتحدث عنه فيعبر عن تفهم صاحبنا لمكوناته، وأنه مجموعة من البحوث فى هذا الفرع من الدراسات الأدبية وقد دعا الله ــ فى المقدمة الموجزة للكتاب ــ أن يوفقه فى إظهار الحقائق، التى تقرب بين الآداب العالمية، وتنصف التراث العربى من تعصب المتعصبين من المستشرقين، ومن الدعاة إلى الاستغراب ممن غاب عنهم الدور الإنسانى العالمى.

وجاء الكتاب فى بابين يندرج تحتهما عدد من الفصول، أما الباب الأول فلم نجد له عنوانا على غير المتبع فى المؤلفات الممنهجة، ولعله رأى أن اختيار عنوان ربما لا يشمل كل الموضوعات التى بحثها فى الفصول الثلاثة، التى عقدها لهذا الباب.

أما الباب الثانى فمن غير عنوان كسابقه، ويتكون من فصلين، جاء أولهما بعنوان بحوث فى الأدب المقارن، ويتضح مدى توافقه أو تقاربه مع عنوان الكتاب، بينما جاء ثانيهما بعنوان "التأثير والتأثر بين الأدب العربى والآداب الأخرى" .

ولم ينته الكتاب بخاتمة تذكر فيها أهم النتائج التى تمخضت عنها هذه البحوث موضوع الكتاب، ولكنه اختتم الكتاب بكلمة رجاء قال فيها: "أرجو أن أكون قد أسهمت فى إيضاح ما شغلنى كثيرا، واستولى على تفكيرى من قضية التأثير والتأثر بين اللغة العربية واللغات الأخرى، التى

---

(١) كان هذا الكتاب إحدى متطلبات الترقى إلى درجة أستاذ مساعد، ومن مطبوعات عام ١٩٩٢م.

كان لها دور فى هذه القضية، ناصحا أبناء العروبة والإسلام بالذود عن حياض لغة القرآن التى أمرنا المصطفى ﷺ بتعلمها وتعليمها؛ لأنها لسان الله عزوجل يوم القيامة"[١] .

ولا شك فى أن هذا الكتاب ــ بما بحث فيه ــ يعد مرجعا حديثا يتلاءم مع دارسى الأدب العربى فى جامعة الأزهر، وسائر الجامعات الأخرى ، فجزى الله صاحبه خيرا.

**٢ ـ أدب الوفادة والسفارة من العصر الجاهلى حتى نهاية العصر العباسى .**

يبدو أن هذا الكتاب قد استغرق إتمامه عددا من السنوات، وربما يكون بعضه أو معظمه الشغل الشاغل لصاحبه أثناء مدة إعارته بالسعودية، فبعد أن أتم طبع الكتاب السابق شرع فى طبع هذا الكتاب عام ١٩٩٨م ومعه كتاب آخر سنعرض له بعد قليل[٢] .

إن كتاب "أدب الوفادة والسفارة.." موسوعة ضخمة فى تاريخ الوفادات والسفارات، إذ يجمع بين دفتيه نصوصا متميزة فى هذا الأدب الفريد فى عصور الجاهلى والإسلامى والعباسى، وغلب على هذا الكتاب الجمع والنقل، مع مراعاة الدقة فى الاختيار، وإيضاح مواصفات النص المثبت ومناسبته إذا وجدت، مما يجعل من هذا الكتاب ذخيرة قيمة لا تصلح للتلخيص، فهى تغرى بالقراءة، ولا يغنى بعضها عن بعض، وأن تقسيم الكتاب إلى ثلاثة أبواب كل واحد منها بفصلين إجراء منهجى تاريخى بحت، كما أن طبيعة الكتاب تجعل منه خزانة للمعارف العامة والنصوص المتميزة والنوادر النافعة، التى أجهد المؤلف فيها نفسه بحيث تعود بثمرات نافعة على القارئ، وليس الكتاب بهذه المواصفات

---

(١) بحوث فى الأدب المقارن صـ٣٢٧ .
(٢) الكتاب الآخر بعنوان "شعر الوطنية المصرية عن البارودى وشوقى" .

مؤهلا بشكل حاسم للاستفادة منه فى الترقى إلى درجة أعلى، فقيمته ذات آثار متعددة، ومنافع متنوعة للأديب والمثقف والداعية والمعلم ٠

**٣ ـ شعر الوطنية المصرية عند البارودى وشوقى ـ دراسة نقدية ٠**

طبع هذا الكتاب عام ١٩٩٨م فى توقيت متقارب مع الكتاب السابق، ويعد وثيق الصلة برسالة (الماجستير) التى أعدها صاحبنا فى أول طريقه للبحث العلمى، وعنوانها (أثر المنفى فى شعر البارودى وشوقى) [١] ولكن التقارب بين الموضوعين لا يجعل الثانى صورة للأول، فلكل واحد منهما موضوعه ومنهجه، وامتداده من حيث الأبواب والفصول، وطريقة العرض وقد جاءت صحائف (شعر الوطنية...) مائة وأربع عشرة، موزعة على بابين، كل واحد منهما بلا عنوان، والأول فى ثلاثة فصول، أما الثانى فمن فصلين، تمَّ الحديث عنهما بإيجاز لا يتجاوز عشرة فصول!!

**٤ ـ تاريخ الأدب فى العصر الأموى٠**

طُبع هذا الكتاب عام ٢٠٠٧م بعد أن تجاوز صاحبنا السبعين من عمره، وأغلب الظن أنه نتاج سنوات سابقة، وليس له كيان مستقل فى النسخة التى بين يدى، وإنما جاء ضمن كتاب بعنوان هو "تاريخ الأدب العربى فى عصر صدر الإسلام والأموى"[٢] واشتمل جزءين أو قسمين الأول بعنوان "تاريخ الأدب العربى فى عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة من تأليف الدكتور حسن أحمد الكبير وهو القسم الأكبر من هذا

---

(١) سبق التعريف بها٠

(٢) الصواب أن يكون التعبير فى العنوان: "فى عصرى صدر الإسلام والأموى، أو فى عصر صدر الإسلام والعصر الأموى، إلا إذا كان الرأى أن يكون صدر الإسلام والأموى عصرا واحدا٠

الكتاب المشترك، أما القسم الثانى فيخص الدكتور رفعت زكى، وهو المذكور أول الكلام، وتغلب عليه الصفة الدراسية المقررة، التى تناسب الطلاب والباحثين، وجاء عرض موضوعاته فى مائة وخمس وستين صفحة بدأت بالعرض لألوان من الأدب فى العصر الأموى وشعر النقائض، كما تحدث عن اتجاهات الشعر وخصائصه فى هذا العصر، والخطابة وفن الكتابة وعوامل نهضة الأدب ، وأهم خصائص الكتابة فى العصر الأموى، وختم الكتاب بالحديث عن عبدالحميد الكاتب، الذى قتل مع أفول شمس الدولة الأموية٠

**٤ـ المرأة فى شعر المتنبى**[١] ٠

عرف صاحبنا فى هذا البحث بالمتنبى الشاعر المتفرد الذى لا يشق له غبار، وذكر أن المرأة فى شعره لا تخرج عن أمرين: إما أن تكون رمزا لأشياء متعددة، وإما أن تكون حقيقة يتناولها معبرا عن لحظات قصيرة فى حياته، وتحدث عن المتنبى بصفته شاعر غزل من الطراز الأول، وعرض لعلاقته بالمرأة، وحدد المعانى الغزلية التى تطرق إليها، وتحدث عن مراثيه فى النساء، أى أن البحث قد اشتمل شعر الغزل وشعر الرثاء، وقدم بعض النماذج الشعرية التى ربط بينها وبين رؤيته النقدية، بمعنى الجمع بين النظرية والتطبيق، أو الرؤية والأداة، ثم اختتم البحث بقوله: "وهكذا كانت المرأة فى حياة المتنبى، حقيقة ورمزا، ولم تكن بعيدة أبدا عن قلبه ووجدانه ومشاعره ــ كما زعم البعض ــ فهو رجل وشاعر، يحمل ذاتا مفعمة بالأحاسيس، تستوقفه الهمسة الحانية،

(١) بحث منشور فى مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق العدد العشرون عام ٢٠٠٠م من صــ٣٠٣ إلى صــ٣٣٨ ٠

كما تدغدغ مشاعره النظرة التى تمس شفاف القلوب بسهامها المصيبة، فلابد له من التوقف أمام هذا الجمال الحسى، كما لابد له من فلسفة ما يوحى به هذا الجمال من صور معنوية، فتغزل فى محاسنها وحبها، ورثاها بعد رحيلها بما تستحق"[1] .

وقد كان هذا البحث آخر ما خطه الدكتور/ رفعت من بحوث علمية، فقد نشر فى أعقاب تحوله إلى المعاش، وعمله أستاذا مساعدا متفرغا، وهو ليس كالبحوث الدراسية المقررة التى تراعى فيها مستويات الطلاب، وربما كان أحد البحوث المزمع التقدم بها للأستاذية، ولكنه قنع بما قدم، ورضى بما وصل إليه، والله أعلم بما فى قلوب العباد .

**ثامنا: طبيعة الحياة بعد الخروج إلى المعاش والتفرغ العلمى:**

انتقل صاحبنا إلى المعاش عند بلوغه الخامسة والستين من عمره، والذى يعبر عنه فى المجتمع الجامعى بالتفرغ إلى سن السبعين ، وغير المتفرغ لمن زاد عن ذلك، وربما كانت تراوده الرغبة فى الترقى إلى درجة أستاذ، ولكن ــ فيما أعتقد ــ لم تكن المدة الزمنية فيما بين العودة من الإعارة والخروج إلى المعاش كافية لاستكمال متطلبات هذه الدرجة، ولكنه ــ فيما بدا لنا آنذاك ــ لم يكن سعيدا بذلك، وربما انعكست آثاره على نفسيته فى ظل طموحه وأمله، الذى كان ينمو فى أعماقه يوما بعد يوم بلا ملال وقنوع، وإن غلبه الرضا ــ كثيرا ــ بما وصل إليه فى مجال وظيفته، وبما قدمه للمكتبة العربية، وبما أنجزه من تحولات كبيرة ومهمة فى حياته، وربما كانت سعادته الكبرى فى رضاه عما قدمه لأهل بيته، حيث استكمل رسالته مع أبنائه الذين تزوجوا، أو

---

(١) السابق صـ٣٣٦ .

فى طريقهم إلى الزواج وصار لهم فيما بعد أبناء، كان يرى فيهم البهجة والأمل فهم أحفاده[1] الذين تقربهم عينه، وينشرح لهم صدره٠

وقد اتسعت أبواب التواصل مع أهله وأقاربه، فبعد وفاة جدته التى ربته فى مرحلة متقدمة كان صاحبنا بارا بأبيه إلى أن توفى، وتوالى الراحلون بالموت من الأسرة فكان حزنه عليهم فوق الاحتمال، خاصة عمه، الذى زوجه ابنته، واعتبر وفاته قاصمة للظهر، وكان عطوفا على أبناء عمومته بعد رحيل الآباء فيتواصل معهم ، ويفصل فى نزاعاتهم، ويفك بعض كرباتهم أينما كوانوا، ولما صارت والدة زوجته، وهى امرأة عمه ــ فى حاجة إلى رعاية خاصة ــ ضمها إلى أسرته، فصارت محل الإكرام والتقدير فى بيته، وكان بين الحين والآخر يلم به مرض قديم أو جديد فلا يلبث إلا أن تعود إليه صحته، ويسترد عافيته، ويحمد الله على السراء والضراء٠

**تاسعا : وفاته وصفاته:**

١ - كان الدكتور رفعت زكى من الأزهريين النبلاء، ومن الرجال الأتقياء، فقد جاء إلى الدنيا، وشهد ــ وهو طفل غرير فى حدود الخامسة أو السادسة ــ موت بعض أخوته ورحيل أمه، ووفاة باقى أخوته وكل ذلك فى قرابة عام وسارت به سفينة حياته، وحيدا برعاية جدة عجوز، ولما أوشكت سنوات عمره وأيام حياته على النفاد قدر الله الأسباب التى ارتحل بعدها من الدنيا، إذ لم تطل رحلة مرضه، ولم يلحق بأهله عنتا ومشقة، بل كان مهموما بهم، وهو فى نومته الأخيرة،

---

(١) له من ابنته الكبرى ولد،ومن الثانية بنتان ومن الابن ولد ثم جاء له ولد ثان بعد رحيل صاحبنا-طيب الله ثراه-٠

وانحصرت أحداث النهاية فى أقل من أسبوعين ، فقد كان عائدا من صلاة الجمعة ، فسقط على سلم العمارة، وأصيب بكدمات وتسلخات فى وجهه ورأسه وبعض أطراف جسمه، فلزم بيته، وتورمت قدماه، وتغير لونها، وتقيح الجرح فيها، فتم إجراء التحاليل المطلوبة، والعرض على الطبيب المتخصص، الذى أحاله إلى مستشفى (المقاولون العرب) بالقاهرة، وأجريت له جراحة فى قدمه، صاحبها هبوط فى أداء القلب، وبدأت صحته تضعف، وأكله يقل، فتزاحمت الأمراض عليه، إلى أن كانت الوفاة فى صبيحة يوم الأربعاء الثامن من صفر ١٤٣٥هـ الموافق للحادى عشر من ديسمبر عام ٢٠١٣م وانطوت صفحة حياته، بعد أن أخذ نصيبه من الدنيا التى صارت رحلته بها ذكرى طيبة وسيرة حسنة، يتأثر بها ويستفيد منها أهله وسائر أقاربه وكل المحيطين به من الزملاء والأصدقاء والجيران، الذين يذكرونه بكل الخير والحب والتقدير .

٢ - جمعت حياة الدكتور رفعت زكى بين الألم الذى اكتوى بناره سنوات طوالا، وبين الأمل الذى بدأ ينمو فى أعماقه، منذ أن أتم تعليمه العالى فى جامعة الأزهر، وتحول إلى النظر فيمن حوله، بعد أن كان منكفئا على نفسه، منحصرا داخل العالم الضيق لجدته، التى بدأت تتهاوى، ووالده الذى نفض يديه من هموم ابنه، وصار منتظرا للبر والإكرام منه، بعد أن تركه يجابه عثرات السنين، ولذا فإن زوجة زميلنا ــ طيب الله ثراه ــ هى أول الرواصد لحركة زوجها، فقد لازمته أكثر من خمسة وأربعين عاما، وبعد أن لحق بربه ، قالت عنه: "أما بالنسبة لعلاقته بى كزوجة، فكان نعم الزوج والحبيب والصديق لمعاملته

الحسنة، وحسن أخلاقه معى فى كل حال، حتى حالات اختلاف الرأى بيننا كأى زوجين كان لا يغلط ولا يسب أبدا، وقالت: إنه كان يحترم إرادتها، ولا يطغى على مخصصاتها، ويقدر أهلها ، فهم أهله من قبل الزواج، ومن بعده.

وتأتى علاقته بأبنائه دليلا على حبه للحياة، وإنماء بذور الأمل فى عقله ووجدانه، فقد سعد بهم، وأحسن تربيتهم، وفرح بزواجهم وإنجابهم إذ صار له أحفاد يضيئون مسيرة حياته، وكانت أسرته عطاء عظيما من الله، حمده عليه، بعد أن عرف الحرمان من الأم والأخ والأخت، الذين ماتوا جميعا فى طفولته المبكرة، وعاش مع الأمل الذى تجلى بصورة مبهجة فى ظلال الزوجة والأبناء.

أما علاقاته بأساتذته وزملائه وتلاميذه وسائر أصدقائه فكانت مبنية على الصراحة والصدق، والكرم والمودة، والتراحم والعطف، فقد أحب وأشاد بالعلماء الذين أشرفوا على رسالتيه للماجستير والدكتوراه، وناقشوه فيهما، وأذكر أننا ــ أعضاء قسم الأدب والنقد فى الكلية التى نعمل بها ــ قد عقدنا العزم على تكريم أحد الأساتذة وهو الدكتور صابر عبدالدايم، بتأليف كتاب عن حياته ومؤلفاته، وكان صاحبنا ــ فى ظروف صحية غير معتدلة ــ وإذ به يتحمس للمشاركة، ويكتب كلمة حب ووفاء لهذا الزميل، ولعلها آخر ما خطته يداه فى الدنيا، فقد لحق به ما لحق، وهجم المرض عليه إلى أن توفاه الله تعالى.

وكان حسن المعاملة لطيفا مهذبا، مع طلابه سواء فى الرسائل التى أشرف أو شارك فى الإشراف عليها ، أو كان عضوا فى لجان المناقشة، والتى غالبا ما يكون الطالب فيها متخوفا من المفاجآت وفى حاجة إلى

الرأفة والرحمة فكان صاحبنا يبذل من التسامح والتعاطف ما يبدل الخوف إلى أمن واطمئنان.

وكان مع زملائه وأصدقائه ينسى الإساءة، ويتسامع مع المخطئ، ويجامل المسرور، ويواسى الحزين، ويساعد المحتاج، ويحرص على القيام بفروض العبادة وسنن دينه الحنيف، ذاكرا الله تعالى، وصولا لرحمه، عزيزا كريما، صابر خدوما، يتحمل الشدائد، ويحب الأطفال الصغار، ويرحم الحيوانات والطيور، ويتولى أموره بنفسه، ويحرص على الدقة والتنظيم وترتيب الأمور وسائر الأشياء، وهو فنان موهوب اختصه الله بخط جميل يخدم به الكثيرين فى حب وتعاطف وتقدير، وكان نشيطا فى عمله، لا يتكاسل عن واجباته ويحب العلم، ويحرص على إبلاغه لطالبه، وكان ــ رحمه الله ــ قد أوصى بالتبرع بمكتبته الخاصة صدقة جارية إلى مكتبة كلية اللغة العربية جامعة الأزهر بالزقازيق ليستفيد بها طلاب العلم، كما أن أبناءه ليسوا فى حاجة إلى شئ منها.

وكان خدوما ، ناصحا أمينا، فقد كانت لزوجة ابن عمه (شقيق زوجته) وهى من أصل غير عربى كانت لها رغبة فى المعرفة لأحوال الدين الإسلامى، فمد لها يد العون، بالآراء السديدة والكتب المفيدة، حتى أنعم الله عليها باعتناق الدين الإسلامى برعاية الشيخ محمد متولى الشعراوى، وكان دقيقا ومنظما ومرتبا فى كل أموره من حيث الأوراق والصور، والشهادات واللوحات والبراءات ، وسائر الأمانات التى يودعها لديه الكثيرون؛ لتكون فى حفظه ورعايته.

ولقد مر فى حياته بكثير من العسرات، لكنه لم يعرف الاستسلام أو الخوف، أو اليأس، وانتصر على المعوقات، ووصل إلى كثير مما تمناه

ورغب فيه، وكانت له فترات يعانى فيها من صـــروف الحيـــاة فيحـــزن ويمعن فى حزنه، وربما يغضب أو ينفعل، وربما يحوطه ظلام الرؤيـــة، لكن السحب الداكنة لا تلبث إلا أن تنقشع من سمائه ويعود نهـــاره إلـــى الصحو والإشراق.

وكان ضعيفا أمام الأطفال بشكل ملفت وشديد التعلق بهم واللهفـــة عليهم، سواء أكانوا له أبناء أم أحفادا أم مـــن توابـــع الآخـــرين، إذ أن نشأته وما بها من معاناة وشبه يتم رسخت الحزن فـــى أعماقـــه فكـــان يحركه أو ينتزعه بالإقبال على حفدته، وبقايا زمنـــه، ويـــشمله اليـــأس فيبكى وتنثال الدموع على خديه يخونها النظام ، ويتبلل الشعر الأبـــيض بالعطف والحنين والآم السنين، رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه منـــازل الصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

**كتبه**

**الدكتور/ السيد محمد الديب**

Sayed.Addeeb@hotmail.com